حوار أقدم معتقل سياسي في المغرب

8 دراهم

الجريدة الأخرى

نيشان

NICHANE

المغرب كـ

العدد: 85   28 أكتوبر 03- نونبر 2006

انفراد

التقرير الذي أطاح بـ "كرواتيا"



كان لهم نبيّهم و قرآنهم و طقوسهم.
حكموا "المغرب النافع" مدة 4 قرون...
قبل أن يحذفهم المخزن من التاريخ الرسمي.
"نيشان" تعيدهم إلى الذاكرة.

ادواردو ديزيكاسو: مستشرق المدرسة الاسبانية. منشورات ACR

المغرب المنسي

برْغواطة مملكة المجوس

مدير النشر: ادريس كسيكس

www.nichane.ma

قناع تامغربيت

«إيوا حنا غير فْ المغرب»، هذه هي اللازمة التي نسمعها في كل مرة وحين، في ظلمة الليل حين ينقطع الكهرباء على حي بأكمله، ولا يأتي أصحاب دار الضو حتى يظهر شفق الفجر؛ وحين تحدث حادثة سير مروعة في طريق وطنية، ولا يأتي الإسعاف حتى توشك الروح أن تزهق؛ وحين يحضر التلاميذ في مدرسة عمومية ولا توليهم المعلمة المهتمة بأظافرها أو بعدسها وفولها إلا دقائق معدودة؛ وحين يجيء مواطن على وشك الهلاك الى مستشفى عمومي ولا يقبل منه تضرع ولا ألم، ما دام لم يحضر المال والبنون.. لاحظوا أنه كلما هم الأمر المواطن العادي الذي لا يطلب أجرا سوى اضطلاع موظف بما تمليه عليه الخدمة العمومية، يتعطل كل شيء. تيْديرو نصّ خدمة باسم الخصوصية.

الحاصل أن المغرب كله غير معطل بنفس الدرجة، ففي القطاع الخاص، وخاصة الشركات المعروفة بجودة عطائها، لا مكان للارتجال، وحتى في المجال العمومي الذي يقترب من دائرة القرار الفعلي، سواء كان الأمر يهم الوزارات الفاعلة أو القصر أو مواليه القابضين على مفاتيح المشاريع الاقتصادية الكبرى، تجد هناك مغاربة من صنف معولم، لا يؤمنون بـ«رخاها الله» و«ما مات حد» و«اللي بغا يربح، العام طويل» الخ. عقيدتهم العمل خدمةً للمردودية المالية التي تعود عليهم بالنفع ولمول الشي (سواء كان ملكا أو مالكا) الذي سيرضى عنهم ويجزيهم بسخاء.

مؤخرا، بدأ الترويج لمقارنة غريبة بين تقنوقراط وزارة الداخلية الذين لا تخفى عنهم خفية، وبين البرلمانيين الذين يخفون أكثر مما يعلنون. الهدف من هذه المقارنة قول نفس الشيء الذي قلناه بخصوص خدام الشعب وخدام مول الشي. الصنف الأول متقاعس، مُدبّر على راسو وحامل لقناع تامغربيت لإخفاء جشعه. أما الصنف الثاني، فلا يخشى أحدا من أمثاله، لكن يفقد حريته في التفكير أمام أولي الأمر. الصنف الأول لا يخدم أحدا إلا نفسه والثاني يخدم الحكومة والملك ولا ينسى نفسه أبدا.

هناك من المغاربة من يفضل تامغربيت ديال خدام العرش. يقولون «على الأقل هؤلاء يشمرون على ساعد الجد». أنا لا أفضل لا الأول ولا الثاني، لأنهما معا حبيسا منطق الخصوصية. المتقاعسون يجدونها مطية لتقديم المغرب على أنه بلد مختلف ولو طارت معزة. أما المجتهدون فيضعون قناع الخصوصية لتأخير محك الديمقراطية، قائلين: «واش هدو (مشيرين الى الأحزاب الفاسدة) هوما اللي غيْحكمو البلاد؟! وكأنهم أشرف منهم أو أكثر منهم نجاعة. في الواقع، لكل فساده، هناك من أفسده الغش في العمل، وهناك من أفسده الخنوع المفرط. وسط هذين الصنفين، بدأت تظهر بوادر مواطنين من صنف مخضرم، يؤمنون بالعمل وبحرية الرأي معا. هؤلاء على الأقل لا يحملون قناع تامغربيت، لأنه لا يمكن أن تكون محبا لوطنك وتقبل أن يكون عْلى قدّ الحال.◆

هناك من أفسده الغش في العمل، وهناك من أفسده الخنوع المفرط



إدريس كسيكس

نيشان
تصدر عن
مجموعة TELQUEL
المدير العام
أحمد بن شمسي
مدير النشر والتحرير
إدريس كسيكس
سكرتير التحرير
عمر جاري
هيئة التحرير
رضوان الرمضاني (رئيس قسم)
أحمد نجيم (رئيس قسم)
دلال الصديقي
عمر أوشن
لحسن عواد
إسماعيل بلا وعلي
عز الدين الهادف
المعطي قبال (باريس)
كتاب الرأي
جمال بودومة
سناء العاجي
المدير الفني
طارق جبريل
المراجعة
محمد منظوري
البحث والتوثيق
خديجة العلوي
الصور
رشيد تنيوني
إيس بريس
فاطمة الزهراء حسني
المدير التجاري
عزيز بوستة
الطاقم التجاري
سهام بنلقرشي
عادل الصبار
المديرة المالية والإدارية
نادية أكوري
الاشتراك
سعاد غماري
المبيعات
نسرين الرايس
المحاسبة
نوال الفاخوري
الفاتورات
خالد الرويف
السكرتارية
إلهام محفوظ
الإشراف على التوزيع
صالح رودان
الطبع
إيديال
التوزيع
سوشبريس
شركة النشر
Free Media
العنوان
عمارة رقم 49 زنقة الوردي
الجيلالي (فوكو سابقا)
- شارع الجيش الملكي
الدارالبيضاء - المغرب
الهاتف: 022.22.19.18
فاكس التحرير
022.22.22.13
الفاكس التجاري
022.22.20.97
الفاكس الإداري
022.22.09.64
البريد الإلكتروني
info@nichane.ma
الإيداع القانوني 2005/0150
ردمد: 1114-9140
التصميم الفني
طارق جبريل
تم طبع 17 500 نسخة من
العدد السابق



مملكة برغ

«مملكة المجوس»، هكذا كان يلقبهم المغاربة الموالون لمخزن القرون الوسطى. حكموا منطقة تامسنا الممتدة من أبي رقراق إلى أم الربيع، طوال أربعة قرون. كان لإمارتهم نبيها وقرآنها وطقوسها. لكن السلطة المركزية، منذ الموحدين، لم تترك لهم أي أثر.

إدريس كسيكس

الرسومات التي تصاحب الملف هي لمستشرقين لم يعاصروا البرغواطيين لكنها منتقاة بحسب مواضيعها ومطابقتها لما كان عليه الحال آنذاك

«برغواطة»، الاسم يبدو غريبا على مسامع الناس، وكأنه آت من عالم آخر. منهم من سمع به يوما ما ولم يعلم عمّا يدل، لأنه غير وارد في مقررات التاريخ المدرسية. ومنهم من قرأ سطرا عنه في الموقع الرسمي لوزارة الاتصال، لا يفهم منه سوى أنهم «قوم تمردوا على الخلافة الأموية». ومنهم أمازيغ علموا بالتوارث أن البرغواطيين هم آخر دولة مغربية كان ملوكها اولاد البلاد من أولهم إلى آخرهم. الوقوف عند هذه الإشارات الغامضة لا يكفي للذهاب بعيدا واستكشاف من هم البرغواطيون. ما لا يعلمه العامة هو أنهم حكموا



واطة المجوس



رسم نادر يمثل البرغواطيين

يحكى أن البرغواطيين قضوا على 387 مدينة في معاركهم

منطقة تامسنا، الممتدة من سلا إلى آسفي (أو ما يصطلح عليه اليوم بالمغرب النافع) مدة 4 قرون، وأنهم بخلاف ما قد تشير إليه كتب التاريخ، لم يخضعوا لا لسلطة الأدارسة ولا حتى للمرابطين، وأن هؤلاء إذن لم يحكموا عموما، وفي فترات متقطعة، سوى الصحراء والأطلس والشمال والريف. والأدهى أن البرغواطيين لم يكونوا يدينون بإسلام السنة ولا حتى بإسلام النبي محمد، إذ كان لهم نبيهم وقرآنهم وطقوسهم الخاصة.

توصل أخيرا فريق من الباحثين، بعد سنوات من الحفريات، إلى أن أحد المقابر التي كان يدفن فيها قومهم قرب مدينة الكارة، كانت تدعى مقبرة «المجوس». اللفظة تعني حرفيا «عبدة النار» لكنها هنا، حسب الباحث المسؤول عن الحفريات، أحمد سراج، «كناية عن البرغواطيين الذين لم يكن دينهم مطابقا لقواعد الإسلام». التسمية دليل كذلك على قلة تسامح أهل المغرب، منذ ذلك الزمن، مع من يخالفهم المذهب والمعتقد. فكل الكتابات، على قلتها، التي تحكي لنا حقيقة هؤلاء القوم تقف عند تفاصيل من قبيل تحريمهم ذبح الديك لأنه مؤذنهم، ومنعهم أكل البيض أو تحكمهم في آليات السحر وعلم الأجرام. هذه حقائق تاريخية مدونة وثابتة، لكنها لا تمثل سوى قسط ضئيل من ثقافتهم ودينهم. فمن هم إذن أصحاب ما اصطلح عليه بـ«مملكة المجوس»، التي عمرت من 742 إلى 1148 ميلادية، ولم يبق لها أثر منذ ذلك التاريخ؟

الاسم، النسب والهوية

عرف البرغواطيون كذلك باسم «بنو طريف»، نسبة إلى مؤسس الإمارة طريف. التحق هذا المقاتل المغربي عام 710 بجنود العرب القادمين من الشرق، الذين زحفوا على إسبانيا. وقد حصل مقابل جهاده على أراضي «بريو برياطي» بالأندلس. ويجمع أغلب المؤرخين أن هذا هو أصل تسمية برغواطة. لا أحد يفسر كيف انتقل المغاربة من «بربط» إلى «برغط»، ولكن تلك سنة الكلمات الأعجمية الأصل. مقام طريف بإسبانيا خلق التباسا لدى المؤرخين بخصوص أصله، فهناك من اعتبره أمازيغيا، وهناك من ذهب إلى أنه أندلسي، بدليل أن مدينة طريفة تحمل اسمه. لكن أبو صالح زمور، الذي أصبح لاحقا سفيرا لبرغواطة في قرطبة،

قصة البرغواطيين بالتواريخ

740: لجوء مؤسس الإمارة طريف إلى منطقة تامسنا، بعد هزيمته صحبة قوات الخوارج في قيروان.

742: بداية حكم صالح بن طريف، الذي اعتبر فيما بعد نبي البرغواطيين، ومؤسس دينهم.

793: وصول إلياس بن صالح للحكم وتطوير العلاقات مع إسبانيا.

816: ذهاب يونس بن إلياس إلى دمشق لتعلم علم الفلك والنجوم وعلم الكلام والجدال على يد شيخ معتزلي.

842: وصول يونس للحكم، وادعاؤه النبوة باسم جده صالح، وإفصاحه عن قرآن البرغواطيين.

884: وصول أبو غفير إلى الحكم وانتصاره في مواقع دامية على القبائل المجاورة بوادي بهت.

963: سرد أبو صالح زمور سفير برغواطة بالأندلس على أبي عبيد البكري قصة الإمارة وقصة ديانتهم.

1059: مقتل مؤسس الدولة المرابطية عبد الله بن ياسين على يد البرغواطيين.

1148: القضاء على برغواطة من طرف عبد المومن بن علي الكومي.

ذكر أنه ينحدر من أصل يهودي، إذ كان أحد أجداده يحمل اسم شمعون بن يعقوب. شكك ابن خلدون في هذا النسب إذ اعتبر أن «العصبية القبلية هي السبيل الوحيد إلى السلطة» وأنه لا يمكن ليهودي أن يحكم دون مقاومة قبلية شرسة. بعضهم ذهب إلى أن تهويد طريف في الكتابات التاريخية ما هو إلا وسيلة للتقليل من شرعيته. لكن لا سبيل للتأكد من أصله الفعلي، والأهم ليس هو من أين أتى، ولكن ماذا فعل.

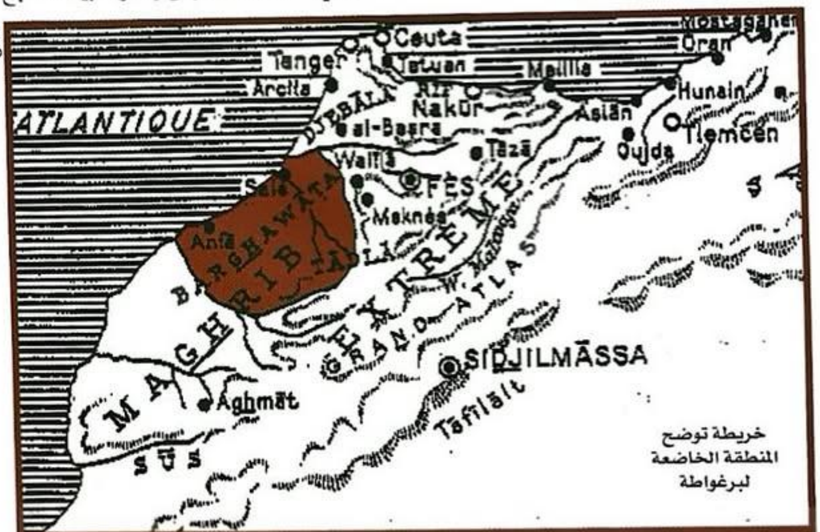
بعد عودة طريف من الأندلس، تمت توليته قائدا عسكريا على قبائل زناتة وزواغة، فصاحَب ميسرة المطغري المعروف بانتمائه للخوارج، في حملته ضد الفاتحين، وعلى رأسهم موسى بن نصير. «نظرا لانشغال الخلفاء عن المغرب، لم يكن يهم الفاتحين تحويل المغاربة إلى الإسلام بقدر ما كان يهمهم نهب أموالهم وهتك أعراضهم»، يذكر الباحث التونسي محمد الطالبي. قبل الثأر بالسيف، ذهب ميسرة البربري عند الخليفة الأموي هشام بن عبد المالك وترك له كتابا مستفسرا عن تعامل أصحابه مع المغاربة: «أميرنا يذهب في حملة وحين يحصل على غنيمة يستثنينا، فنقول جاهدنا في سبيل الله. حين نحاصر مدينة من المدن، يقول لنا تقدموا ويترك الجيوش العرب إلى الخلف، ونقول مرة أخرى إن أجرنا عند الله سيكون أكبر. أما حين يخطف كل بنت جميلة من بناتنا، فنود أن نعلم هل كل ذلك يتم تلبية لطلبكم».

لم تجد الرسالة نفعا، وتعاظمت قيمة المكوس والجبايات التي فرضها المسلمون على البربر، واختطف الفاتحون نحو 13 ألف بنت بربرية خارقة الجمال وقدموها هدية لحكامهم، آنذاك ذهب ميسرة وطريف إلى قيروان لمنازلة مسلمي المشرق عام 740. هناك انهزمت قوات ميسرة واستطاع طريف أن يفلت بجلده فركن إلى منطقة تامسنا. منذ ذلك الحين أصبحت برغواطة تشير إلى مجموع القبائل، وأغلبها من مصمودة وزناتة، التي انضوت تحت لواء القائد العائد. يقول أبو عبيد البكري، «قدم البربر طريف على أنفسهم وتولى أمرهم. وكان على ديانة الإسلام». هذا التوضيح مهم، لأنه بقدر ما كان طريف مؤسس الدولة الفعلي، بقدر ما اعتبر ابنه، صالح بن طريف، هو مؤسسها الروحي وصاحب ديانتها.

من التقية إلى النبوة

الأمور في الواقع لم تكن بهذه السلاسة. لم يخرج البرغواطيون عن الإسلام دفعة واحدة، فخلال القرن الأول من حكم بني طريف لم يجهر صالح ولا حتى ابنه إلياس بالنبوة. ظلا على مذهب العباديين من الخوارج (طائفة مسلمة تؤمن بالديمقراطية والمساواة). يقول الرواة إن صالح كان يخشى على نفسه، إذ «عهد لابنه، حسب البكري، بديانته وعلمه وشرائعه وفقهه وأمره أن لا يظهر ذلك إلا إذا قوي وأمن، فإنه يدعو ملته (الى دينه) ويقتل من خالفه». بالضبط كما فعل النبي محمد في المشرق. وكأن البرغواطيين يودون خلق صورة مطابقة لرسول الله بالمغرب. الفرق هو أن صالح بن طريف، الرجل الورع الذي استطاع جمع 35 قبيلة من حوله، ظل صامتا طوال حياته. أما ابنه إلياس، فلم يهتم، تلبية لطلب أبيه، سوى بتقوية علاقات الإمارة الجديدة مع الأندلس، عبر موانئ أنفا وشالة وفضالة، مستغلا خصب منطقة تامسنا وغزارة إنتاج الحبوب بها (انظر الإطار).

كان لا بد من انتظار الأمير الثالث يونس لتخرج نبوة بني طريف من السر إلى العلن. بدأت إرهاصات هذا التحول تظهر منذ عام 816، حين رحل يونس صحبة أربعة أئمة مغاربة من المعتزلة والخوارج ليتتلمذوا على يد أهل العلم في دمشق. وهناك تعلم يونس علم الفلك والتنجيم إضافة إلى علم الكلام والجدال على يد شيخ معتزلي. كان يونس أول برغواطي يذهب إلى الحج ويعود منه متشبعا بعلم العرب. لم يكن بالمغرب حينها سوى عرب عاربة يأتون من المشرق بسلطة الانتماء للخلافة أو لآل البيت، أو أمازيغ لم يبرحوا مكانهم. أما يونس، فقد نهل من العلم إلى حد التخمة، حيث كان يتناول عقاقير مساعدة على حفظ الذاكرة، حسب البكري. حينما عاد إلى إمارة أبيه «أصبح



خريطة توضح المنطقة الخاضعة لبرغواطة

تامسنا.. ماشي المدينة، البلاد

عاد اسم تامسنا الى الوجود بعد قرابة 900 عام من الطمس، منذ انتهاء عهد البرغواطيين. لأول مرة يتم إخراج هذا الاسم الأمازيغي من الذاكرة المنسية ليطلق على سد قرب آيت أحمد، وعلى مدينة قيد التشييد بين تمارة وعين عودة «القصر هو الذي فكر في تسميتها كذلك» أسر لنا المسؤول عن مشروع المدينة الجديدة.

في الأصل، كانت تامسنا حسب أبي عبيد البكري، تمتد من الرباط الى مصب وادي الربيع، وقال ابن خلدون الى مدينة آسفي. أما عبدالله العروي، فيحدها جنوبا بمدينة آغمات جنوب مراكش.

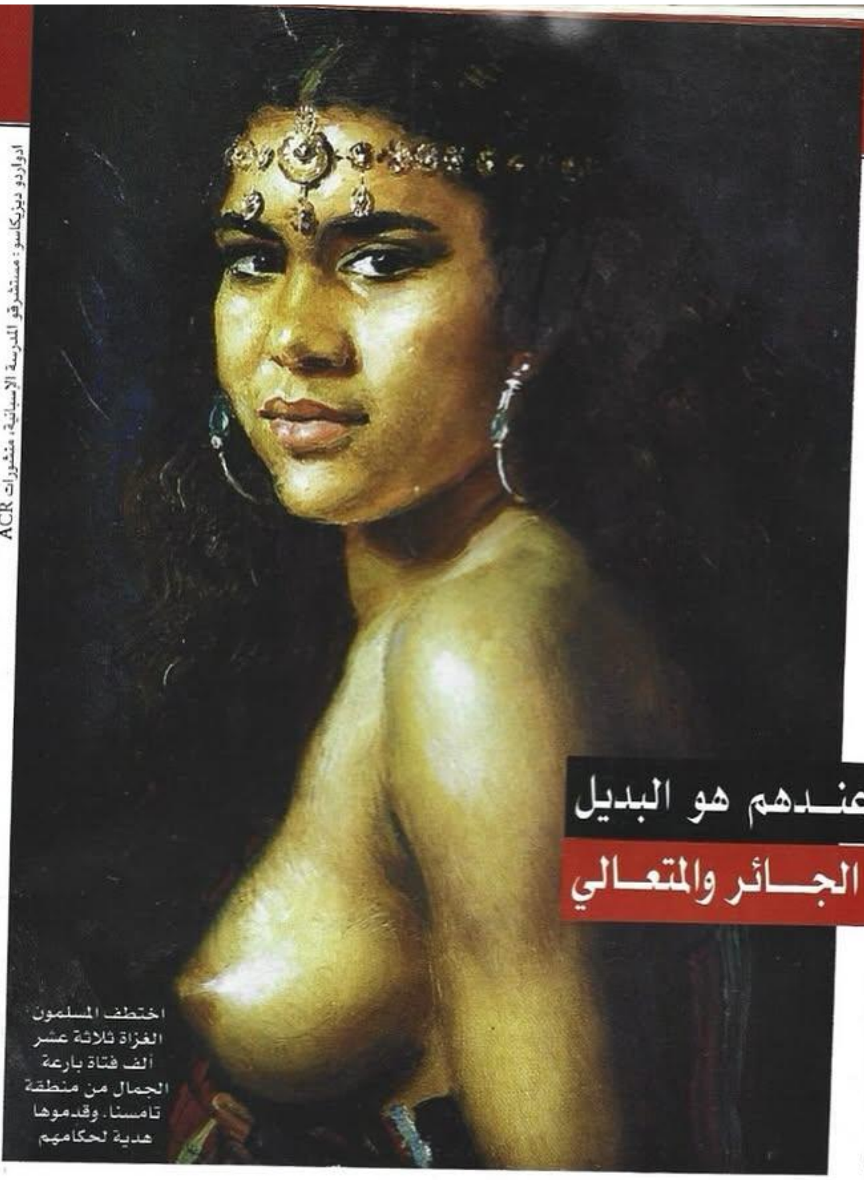
وكلمة تامسنا أمازيغية الأصل تعني بلهجة زناتة «البسيط الخالي» وهو ما يدل، حسب مولود عشاف، على سهول المنطقة الخصبة والصالحة للزراعة. هناك من يقول إن الكلمة مشتقة من «تيمزين» التي تعني الشعير، وقد تدل على آلة الطحن، الرحى.

حينما تقلص مجال نفوذ البرغواطيين، لم تعد تامسنا تشير إلا على المنطقة الممتدة من فضالة الى سطات. والمثير هو أن الموحدين حين أقدموا قبائل عرب للمنطقة سموها «الشاوية»، إشارة الى الشياه التي كان يرعاها هؤلاء. لم يعد منذ ذلك التاريخ أي أثر لاسم تامسنا، كما انتقلت بعض الأراضي من زراعية الى رعوية.◆

يتنبأ بالكسوف والخسوف، مما جعله أقرب إلى النبوءة»، يذكر محمد الطالبي. فيونس، العالم بأسرار الكون، وجد نفسه وسط قوم لا يفقهون، مما سهل عليه المهمة. كيف برر هذه النبوءة؟ أولا، قال، كما يذكر جل الرواة، إن النبي الأول هو جده صالح، بدليل ما جاء في القرآن، «وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهيرا» (سورة التحرير، آية 66). «صالح المؤمنين» أصبح عندهم هو البديل عن «أمير المؤمنين» الجائر والمتعالي. بل هو أرقى منه، لأن اسم «صالح» بالأمازيغية (وارايا وارا) يعني «الذي لا أحد بعده».

واضح أن تكوين يونس في علم الجدال ساعده، بحسب محمد الطالبي، على تكوين نسق مكتمل لنبوة جده ونبوته من بعده. فقد أخرج من جعبته آية أخرى للاستدلال على أحقية صالح بالنبوة، حيث يقول القرآن المحمدي «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه» (سورة إبراهيم آية 14). وبما أن محمدا عربي فصالح أولى به بتبليغ الرسالة لأهله في بلد المغرب. يونس لم يستثن نبوة محمد، كما أنه خصص لعيسى مكانة خاصة، إذ تنبأ بصلاته وراء «صالح المؤمنين» وأفرد لموسى مكانة أرقى، حيث نهل كثيرا من أقواله. وحين سئل يونس عن سكوت جده، يقال إنه ذكر بواجب «التقية».

«صالح المؤمنين» أصبح عندهم هو البديل عن «أمير المؤمنين» الجائر والمتعالي



اختطف المسلمون الغزاة ثلاثة عشر ألف فتاة بارعة الجمال من منطقة تامسنا، وقدموها هدية لحكامهم

ادواردو ديزيكاسو: مستشرقو المدرسة الإسبانية، منشورات ACR

التظاهر بغير ما نعتقده يظهر كذلك، حسب محمد الطالبي «تأثير الفكر الشيعي»، الذي بدأ يدب ويقترب، إذ تحولت تحت إمرة الأدارسة قبيلة بنولماس، بالأطلس على باب تامسنا، إلى الشيعية الإسماعيلية. تأثير الفكر الشيعي يظهر كذلك من خلال تنبؤ يونس بعودة جده صالح تحت حكم ملك بني طريف السابع كأنه المهدي المنتظر. وهو ما قد يشير، حسب المؤرخ مولود عشاق، المختص في الموضوع «على وجود آثار فكر مهدوي عند البرغواطيين». أما قول يونس بتوارث النبوة، وتعيين نفسه خلفا لجده، فقد رأى فيه محمد الطالبي استنجادا بشيخ مبجل بغرض إعطاء مصداقية لحكمه.

عرف يونس وابنه أبو غفير بالقوة والبطش خلال فترتي حكمهما. يتحدث البكري عن 387 مدينة ذبح أهلها، وعن 7770 قتيلا من قبائل صنهاجة في موقعة واحدة. ربما كانت هناك مبالغة، بحسب مولود عشاق، لأن الرواة المعتمدين كانوا على خلاف دين

السحر والفكر الوثني. إذا عمّت، هانت

يصعب القول باختصاص البرغواطة في السحر. فجل الروايات عن حقبة الفاطميين والمرابطين، تحديدا، تخبرنا بممارسات متفشية في المغرب، وليس في منطقة تامسنا دون غيرها. من بين الترسبات القديمة، اعتقاد راسخ، ما زال قائما، بوجود أرواح الجن داخل الأنهار والأشجار. تحكم البرغواطيين في منطقة أدغال وشد بأس مقاتليها يبدو أنه ساهم في خلق الأساطير.

الدولة المرابطية نفسها لم تتوان في اللجوء إلى الفكر الأسطوري. فقد نسب لمؤسسها عبد الله بن ياسين، حسب أبي عبيد البكري، القدرة على تفجير الماء وسط الصحراء القاحلة. كان، على ما يبدو، لقضايا الخصوبة والجفاف، يقول إبراهيم القادري بوتشيش، قسط وافر في ممارسات السحر. ففي قبائل غمارة بالريف، تفشى ما عرف بالرقادة. وهي «حالة نفسية تعتري الإنسان، يغيب عن وعيه، وبعد اليقظة، يصير يتنبأ بما سيكون في العام المقبل من خصب أو جذب أو حرب»، يحكي البكري. واضح، كما يقول القادري بوتشيش، أن الفقر والجهل والتسلط ساعد على تجدر هذه المعتقدات.◆

البرغواطيين، فالبكري سني وأبو القاسم ابن حوقل شيعي. أما محمد الطالبي، فيرى أن العنف يظهر، كيفما كان مداه، مقاومة القبائل للدين الجديد، فاثنا عشر منهم فقط قبلوا نبوءة بني طريف، أما السبعة عشر قبيلة الأخرى التي ظلت تحت إمرتهم فقد بقيت على مذهب الإسلام المعتزلي، الذي كانت تدين به. البرغواطيون تعاملوا مع هؤلاء القبائل كحلفاء ولم يضطهدوهم باسم دينهم الجديد. ما هي إذن مقومات الدين البرغواطي الجديد؟ هل هو صيغة محلية للإسلام؟ هل هو مزيج من الديانات السماوية؟ هل هو صيغة مزيدة من مذهب الخوارج الداعي للديمقراطية ممتزج بالفكر الشيعي الموالي لإسلام علي؟ أم هو كما يظنه العامة دين وثني مجوسي؟

دينهم، قرآنهم وطقوسهم

ما هي العناصر التي وصلتنا من دين البرغواطيين؟ قرآنهم أولا. فهو يضم بحسب أبي صالح زمور المدعو «القائم بصلاتهم» ثمانين سورة. أسماء أغلبها منسوبة للأنبياء (آدم، أيوب، يونس...) وبعضها للقصص (فرعون، ياجوج وماجوج، الدجال، العجل...) وسور أخرى منسوبة للحيوانات (الديك، الجمل، الجراد، الحنش...). لم توجد في منطقة تامسنا التي استوطنوها أية صيغة مكتوبة لهذا القرآن، لكن البكري أورد مقتطفا من سورة أيوب المقابلة للفاتحة عندهم. يقول النص «بسم الله الذي أرسل كتابه إلى الناس هو الذي بين لهم به أخباره، قالوا علم إبليس القضية، أبى الله. ليس يطيق إبليس». وكلمة «الله» هنا ترجمة لكلمة «ياكوش» الذي اعتبره البعض إلاه البرغواطيين، والبعض الآخر اعتبره ترجمة لله، كما آمن به الخوارج من قبل من ضمن الأمازيغ المسلمين. هذا الرأي يسانده محمد الطالبي، إذ يرى أن دين بني طريف «لم يتحرر من الإسلام وإنما أعطاه صيغة أمازيغية محلية ومستقلة عن الشرق، بقرآن محلي ونبي محلي».

الأمر لا يقف عند حد النصوص، فالبرغواطيون، حسبما دعاهم إليه يونس نسبة إلى جده صالح، كانوا يصومون رجب بدل رمضان ويجتمعون الخميس بدل الجمعة، ويصلون بعض الصلوات، دون ركوع ولا سجود مثل النصارى، ويغسلون الصرة والخاصرتين أثناء الوضوء ويصلون خمس مرات يوما وخمسا ليلا. أوجه المغالاة هذه، الممزوجة بالبريكولاج الديني، قد تعني أنهم أرادوا الظهور كمسلمين حقيقيين وليسوا في حاجة لدروس من أهل الشرق الجائرين، وأنهم قادرون على إنتاج قواعدهم، ذلك ما يذهب إليه الطالبي. لكن تشددهم في الدين كان يوازي تحليلهم لملذات الحياة، فقواعد التشريع البرغواطي تبيح الزواج من النساء بقدر ما استطاع الرجل مباعلتهم كما يبيح العود بعد الطلاق، دون قيد. ولعل ما كان يثير الأغراب لبلادهم، حسب ليون الإفريقي، جمال نسائهم البارع.

على المستوى الشعبي، تمتزج طقوس البرغواطيين بشكل ملفت مع معتقدات وثنية موروثة ومع ممارسات «سحرية» مكتسبة من قبل تقديس الديك. هذا الاعتقاد ما زال قائما بمنطقة زمور، حيث وصل نفوذ البرغواطيين في نهاية القرن التاسع، فالزموريون ما زالوا يقولون في الفجر «لا يتودان أفلوس» (يؤذن الديك)، أما في ما يخص استبعاد أكل رأس الحيوانات ومنها الحوت، ومنع أكل البيض فما زالت قائمة عند بعض أعضاء قبائل مصمودة الذين لجؤوا إلى سوس.

تحريم لحم الديك وأكل البيض يربطه المستشرق ناحوم سلوش في مجلة العالم الإسلامي بتأثير اليهودية على الديانة البرغواطية، حيث يلعب الديك كحيوان مقدس دورا مهما في محو الخطيئة والمعصية لدى يهود المشرق بالصحراء. سلوش يلاحظ أن ديانة صالح بن طريف تعطي لموسى مكانة أرقى عن عيسى ومحمد. لذلك يقول إن «ديانة برغواطة إسلامية في شكلها، بربرية في

أركيولوجيا. المنقبون الجدد

بدأت محاولات النبش عن ذاكرة البرغواطيين منذ 1994. «لم نكن حينها نتوفر إلا على 500 درهم وعلى سيارة من المجلس البلدي»، يحكي أحمد سراج المشرف على المشروع. الفريق الذي بدأ التنقيب كانت له نية تكوين خارطة أركيولوجية لمدينة المحمدية والمنطقة. الكل كان يعلم، كما يقول أبو عبيد البكري، أن فضالة (المحمدية حاليا) كانت تمثل منفذ البرغواطيين الى البحر. الحفريات مكنت في فترة أولية من اكتشاف موقع «مكول»، الذي وصفه عالم الجغرافيا الإدريسي والمؤرخ ابن الخطيب على طريق سلا ومراكش. اكتشف المنقبون الجدد بالموقع أن حارسا يبيع مقابر أثرية. أذيع الأمر في الصحافة فتدخل عميد كلية الآداب بالمحمدية في تلك الفترة ليطلب من الباحثين العدول عن أمرهم، عاملا بالمثل المغربي «نبش تلقى حنش». استؤنف البحث في ما بعد فتم اكتشاف مقابر أخرى منقوشة ومغايرة لمقابر المسلمين لتلك الحقبة على مقربة من الطريق الوطنية الرابطة بين البيضاء والرباط، غير بعيد عن وادي المالح في موقع يدعى سيدي بوعمر. الملفت للنظر أن مقابر مماثلة وجدت بمناطق كانت بدورها تحت نفوذ البرغواطيين، في الشاوية ودكالة وعبدة. اختلاف الأشكال، وجودة الحجر المنقوش، حسب أحمد سراج، تبين أن الجثث الموارة التراب لقوم مترفين. في العملية نفسها تم إيجاد قرب مدينة الكارة موقعا أشار إليه المؤرخ الفرنسي ميشوبلير يدعى مقبرة المجوس، وهو من الدلائل القليلة عن الذاكرة الجماعية ولصورة البرغواطيين عند مسلمي المغرب. الآن، وقد توصل فريق البحث، بالمحمدية الى أولى نتائجه الملموسة، يكون قد فتح ورشة ظلت لقرون مغلقة ومحظورة.◆



موقع مكول

موقع بودريس

عينات من قبور البرغواطيين المنقوشة

تاريخ. استراتيجية المحو

إذا ما استثنينا نصين قصيرين، وردا في كتاب «المسالك والمسالك» لأبي عبيد البكري في القرن العاشر، وفي كتاب «صورة الأرض» لأبي القاسم بن حوقل في القرن الحادي عشر، وفي ليس هناك أي أثر مادي لحقبة البرغواطيين. بدأت استراتيجية المحو منذ الموحدين، فقد استقدم السلطان يوسف يعقوب المنصور، حسب عالم الجغرافيا الإدريسي، قبائل عربية تدعى جشم وبني معقل لتستوطن الإمارة، وتم إخلاء القبائل الأمازيغية، مثل المصامدة حيث لجأ أغلبهم الى جنوب المغرب، ولا يوجد أي أثر مكتوب لا لقرآن البرغواطيين ولا لأي كتاب من كتابات دولتهم.

ويتساءل المؤرخ أحمد سراج «كيف يعقل أن ثقافة بنيت على الكتابة لم تترك أي أثر مكتوب». هناك من يزعم أنه تم إحراق كل ما خلفه البرغواطيين، لكن لا سبيل للتأكد من هذه الفرضية. الأكيد هو أنه حين أوكل المرينيون للقبائل الزناتية مهمة تولي منطقة تامسنا، حصل تغيير جذري في التشكيلة القبلية وحل الإسلام السني بدل مذهب الخوارج أو أشكال تدين البرغواطيين المنحرفة. ويثير المؤرخ أحمد سراج أنه حينما تم البحث عن آثار ذاكرة جمعية شفاهية بالمنطقة تعذر ذلك، واتضح أنه «تم محو الذاكرة الخاصة بالمنطقة».◆

طقوسها، يهودية في عمقها وميولاتها».

قليل من المؤرخين والباحثين يشاطرن المستشرق سلوش رأيه. مولود عشاق يذكر أن قبائل الأمازيغ ارتدوا عن الإسلام 12 مرة، وأن كل من كان يشكك في الخلافة الشرعية وبالأحرى يستقل عنها (مثل برغواطة) كانت تطلق عليه السلطة الرسمية صفة «اليهودي، المجوسي أو الكافر». في الواقع يستنتج محمد الطالبي بأن البرغواطيين تعاملو «مع الإسلام كثقافة دخيلة، كقوة استعمارية سالبة، لكنهم امتلكوها وحولوها لصالحهم». هذا لا يمنع رواة مسلمين مثل بن حوقل من القول إن دين بني طريف «بدّل عقول الناس وبدّل معارفهم وافترض عليهم طاعته في سنن ابتدعها». وهو حال فرق إسلامية أخرى مخالفة للمذهب الرسمي لم توءد في بداياتها، مثل البهائيين والدروز، الذين ألفوا بدورهم دينا خاصا بهم. فما الفرق بينها وبين البرغواطيين؟

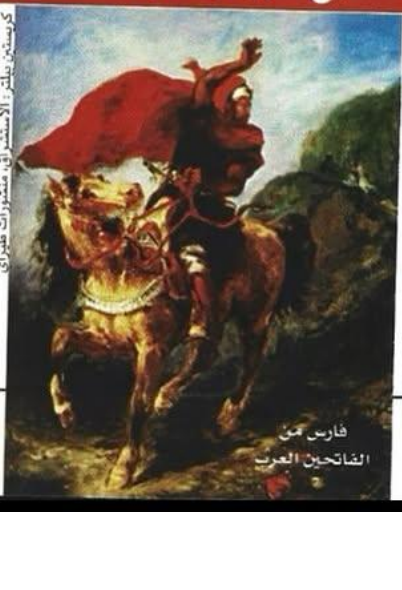
قوتهم الاقتصادية وقوتهم العسكرية

الفرق الحاصل مع الأقليات الأخرى أن البرغواطيين أصبحوا قوة سياسية مهابة الجانب. فبعد حدوث مجزرة وادي بهت ومذبحة قرية تيماغين التي جعلتهم يوسعون من نفوذهم مع بداية القرن العاشر، وصل إلى سدة الحكم رجل مسالم اسمه عبدالله أبو الأنصار، مثقف، معطاء، استطاع بخلاف أسلافه أن يجمع الكثير من الحلفاء دون إراقة دماء. يقول البكري «كان يجمع جنده وجيشه في كل عام ويظهر أنه يغزو من حوله فتهاديه القبائل وتستألفه، فإذا قبل هداياهم وألطافهم فرق أصحابه». هذا الوصف يظهر كيف أصبحت القبائل من حول مملكة برغواطة تهابها وتود مهادنتها.

أما حين وصل أبو منصور عيسى إلى الحكم حوالي عام 953، فقد جدد نبوة جده وتبعته، بحسب ما يرويه سفيره إلى قرطبة. قبائل غزاوة وزاوغة والبرانس وبنو أبي نصير ومنغنيسة وبنو مغمور ومطغرة، مما جعله يتوفر على 10000 فارس. أما القبائل الأخرى التي ظلت على مذهب الخوارج، فقد وضعت رهن إشارته 10000 فارس احتياطي. ما الذي يفسر هذا التعاضد؟ «لم يكن ما يجمعهم قبلي، يقول محمد الطالبي، ولكن قومي. تعلموا أن السلطة المركزية التي تضطهدهم وتهينهم ليست مشروعة وأن الثورة عليها ليست فقط حق وإنما واجب». لكن بعد قرنين من وجود البرغواطيين، لم يعد دافع الثورة وحده يفسر استمراريتهم وقوتهم العسكرية. فعلا، يظهر أن هناك أربع طبقات تحدد البنية القبلية عندهم، بحسب ما توصل إليه مولود عشاق. نجد في الطابق الأول ذرية بني طريف، أصحاب الملك وقائدي الحلف البرغواطي إيديولوجيا وروحيا. يتبعهم المصامدة، الذين كانوا يتمتعون بمكانة اجتماعية مرموقة، ثم القبائل المنحدرة من زناتة وصنهاجة، والتي حصلت على مكانة في المجتمع بفضل التجارة، وأخيرا قبائل ذات أصل سوداني، حليفة للبرغواطيين بحكم تحكمها في قوافل الصحراء.

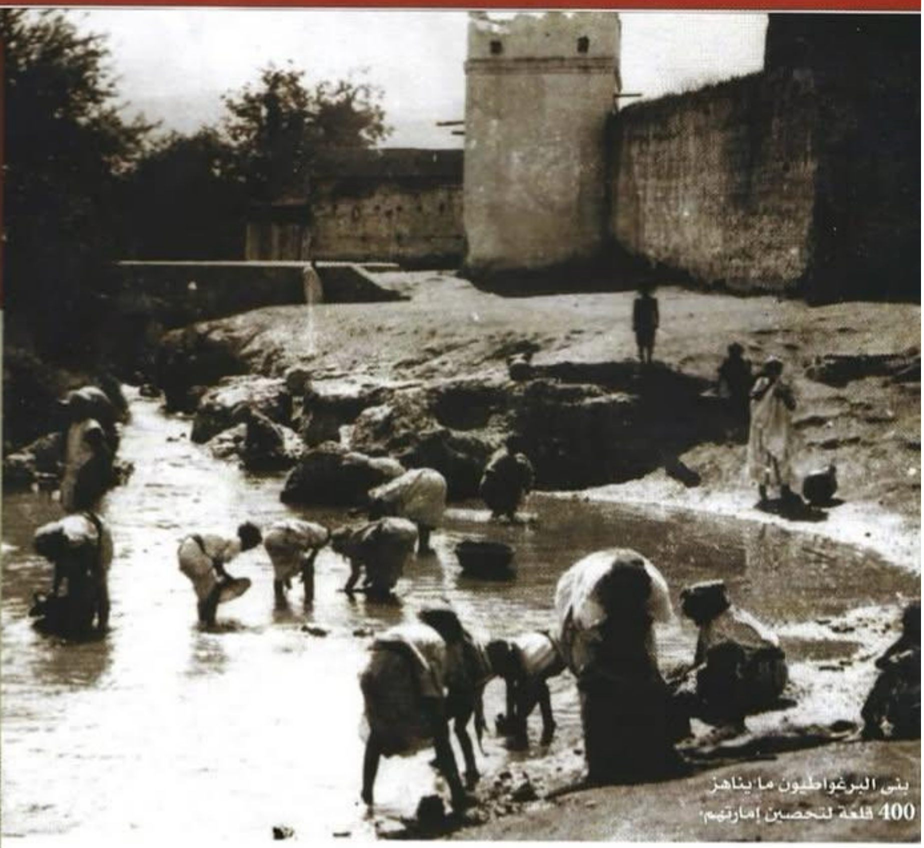
تكونت مع الزمن هوية الانتماء إلى الإمارة. أصبحت حدودها، يقول أحمد سراج، مكونة من قبائل ومحاربين وليس فقط من أنهار وغابات. لكن ما الذي جعل البرغواطيين يكونون قوة ضاربة فيما لم يفلح أندادهم (إمارات النكور بالشمال ومكناسة في سجلماسة) من تحقيق ذلك؟ ليس هناك تفسير واحد لهذا الانفراد. على المستوى السيكولوجي، كما يقول محمد الطالبي، يجب أن نعي ما قدمه بنو طريف للقبائل من حولهم «قرآن بلسانهم، نبي من قومهم وشعائر خاصة بهم»، كأنما أصبح البرغواطيون أهل البيت، مع الفارق طبعا. مولود عشاق يذهب إلى تفسير عقلاني أكثر، معتبرا أن منطقة تامسنا منطقة ذات منعة واعتصام، فهي مكونة من غابات ووديان ومغارات. عين السبع وعين الذئاب بآنفا، لم تكن مجرد تسميات، والبحر من الخلف كان يبدو للأدارسة والمرابطين من بعدهم كبحر الظلمات. إضافة إلى كل ذلك بنى بنو طريف ما يناهز 400 حصن في مدنهم الاستراتيجية، شالة، فضالة، آنفا الخ.

«قرآن بلسانهم، نبي من قومهم وشعائر خاصة بهم»، كأنما أصبح البرغواطيون أهل البيت بالمغرب


فارس من الفاتحين العرب

كريستين بلتز: الاستشراق، منشورات طيراي

لكن القوة الضاربة وراء كل هذا تظل هي القوة الاقتصادية. فقد ظل التصدير إلى إسبانيا هو سلاحهم الأنجع. بل إن قوتهم أوصلتهم كذلك إلى الجنوب. يقول ابن حوقل «وقد يصل إليهم أهل أغمات وسوس بالتجارة وكذلك قوم من أهل سجلماسة». كل ذلك يعني، حسب المؤرخين، أن البرغواطيين كانوا يمتهنون الوساطة التجارية بإتقان. مما يعني أن القوافل كانت سالكة، فالعلاقة حتى مع فاس، حيث كان حكم الأدارسة بين مد وجزر، لم تنقطع إلا في حالات الحرب. أما بخصوص



بنى البرغواطيون ما يناهز 400 قلعة لتحصين إمارتهم

الـزراعـة، فيكفي أن نـورد مـا قـالـه ليون الإفريقي «في عهد أولئك المبتدعين، بلغت وفرة القمح درجة جعلت الناس يستبدلون أحيانا حمل جمل بنعلين».

تحكم برغواطة في منطقة حساسة ومنافذ بحرية استراتيجية، هو الذي جعلها، بحسب المختصين، وسط صراعات الأمويين السنيين والفاطميين الشيعة وحلفائهم في المغرب. «حاولوا القضاء عليهم لأسباب اقتصادية وسياسية وليس لأسباب دينية»، يقول مولود عشاق. أما قوتهم العسكرية، فستظهر بجلاء مع محاولة مؤسس الدولة المرابطية عبدالله بن ياسين القضاء عليهم عام 1059. «لقد دخل، يقول مولود عشاق، في مغامرة غير محسوبة. ظن أنه يستطيع القضاء عليهم، بينما هو آت من الصحراء والبرغواطيون أدرى بوعورة منطقتهم». والأهم، بحسب أحمد سراج، أن لهم قوة قبلية لا يستهان بها». قتل إذن بن ياسين على أيديهم ودفن بقرية نائية تدعى كريفلة، غير بعيد عن ازحيليكة، في قلب «مملكة المجوس».

الأفول والآثار

مع بداية القرن الحادي عشر، فقد البرغواطيون بعضا من سيادتهم على شالة والرباط مثلا، وأصبحت على ما يبدو فضالة آخر منافذهم الشمالية إلى البحر. يتحدث ليون الإفريقي عن 180 مدينة، كما أن ابن خلدون يحدثنا عن تمدن أهل برغواطة، لكن لا أثر لهذه الحكايات في الواقع. لا شك أن الغزو المتتالي على المملكة والذي أدى إلى اندحارها على يد عبد المومن بن علي الكومي الموحدي عام 1148 أتى على الكثير من المدن والحواضر، لكن لا سبيل للتأكد من ذلك. أكيد كذلك أن تحالف المرينيين فيما بعد مع قبائل زناتة على أساس نشر الإسلام السني ساهم في محو آثارهم (أنظر الإطار).

لكن لا سبيل لمعرفة متى استطاع الموحدون تفريق القبائل الموالية لبرغواطة، وهل تم أولا القضاء على دولة بني طريف أم على التركيبة القبلية التي كونت قوتهم الضاربة. وكأنها قصة سحرة، عمروا، حكموا فذهبوا إلى حال سبيلهم. ونبوءتهم؟ أصبحت قصة من قصص الدجالين، تقرأ في الكتب الصفراء لا غير. أما تاريخهم، فأخيرا سيكتب له الخروج من الظل، إذ يؤكد لنا مدير المعهد الملكي للدراسات التاريخية، محمد قبلي، أن موجز تاريخ المغرب الذي هو قيد التحضير «سيضم لأول مرة كل ما نتوفر عليه عنهم، على قلته». وأخيرا سيتعرف المغاربة على أجدادنا البرغواطيين ويعلمون أنهم لم يكونوا لا مجوس ولا هم يحزنون.◆

الريف أيضا قصة نبي متمرد وإمارة إسلامية

برغواطة ليست حالة منفردة في تاريخ المغرب الوسيط. في منطقة الريف، حصل أمران ظلا كذلك لقرون عدة طي الكتمان. في منطقة النكور، قرب الحسيمة، نشأت أول دولة إسلامية، قبل مجيء الأدارسة عام 709. أمير هذه الدولة المغمورة هو صالح بن إدريس الحميري الأصل، الذي فوت له خليفة دمشق تلك الأرض فعاش وتوفي ضمن قبيلة تامسمان.

خلق ابنه سوقا قبلية بين بني ورياغل وتامسمان، أما حفيده سعيد بن إدريس، فقد أسس عاصمة الدولة بمدينة النكور حوالي منتصف القرن التاسع. لقد لعبت الإمارة، يكتب المؤرخ أحمد سراج، «دورا محوريا بين الخلافتين المتنازعتين، الأموية في قرطبة والفاطمية في إفريقية». لم تكن النكور، مثل برغواطة تدين بديانة مغايرة، وإنما بالإسلام الأرثودوكسي، وصمدت الى أن تم هدم المدينة وجلاء الإمارة نهائيا في عهد يوسف بن تاشفين. إذا كانت هذه الإمارة، الممحية من كتب التاريخ الرسمي، لم تخرج عن جادة الصواب، فإن حركة حاميم التي ظهرت بقبيلة غمارة، قرب تطوان، في القرن التاسع، ذهبت مذهب البرغواطيين، حيث ظهر فيها شخص يدعى حاميم ادعى النبوة. له قرآن كذلك، يقول فيه، حسب ما يروي أبو عبيد البكري: «حلني من الذنوب يا من يحل البصر وينظر في الدنيا، يا من أخرج موسى من البحر، منه آمنت بحاميم». لم يعرف قط إن كان قرآنه أصلا عربيا أم أمازيغيا. أما إسلامه فمخالف للتعاليم المعمول بها، فهو يفرض صلاتين عند طلوع الشمس وصلاتين عند غروبها، ويقلص فترة الصوم في رمضان الى 27 يوما، ليكتمل مع ليلة القدر، ويسقط عن تابعيه فريضة الحج، ليقطع كل الأواصر مع المشرق. كما أنه أحل لحم الخنزير. قتل حاميم حوالي عام 930، ولم يعرف من هو قاتله. أما ادعاء النبوة فلم ينقطع في المجتمع الغماري، حيث ظهر فيما بعد عاصم بن جميل اليزدحومي وأبو محمد اللتاني المعروف بأبي الطواجن. وكان الريف منطقة حبلى بالرسل والأنبياء.◆